

الوادي المقدس

تأليف

دكتور محمد كامل حسين

الوادي المقدس

أف هذا الكتاب الأديب الطبيب الدكتور محمد كامل حسين .

يقول المؤلف (الوادي المقدس هو البقعة من الأرض، وهو القطعة من الزمن، وهو الحال النفسية التي تسمو فيها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء، فوق ضرورات الحياة، بل فوق حدود العقل) .

أقول حين تجلى الله في سيناء قال لموسى (فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى) .

الوادي (هو حيث تهتدى إلى الحكمة والتفكير المستقيم، حيث تطلع على حقيقة من حقائق الكون ناصعة واضحة .. وحيث تستقيم لك جادة الحق فلا تتردى في ظلام الجهل أو ضباب الخطأ) ..

وما أروع قوله: (في الوديان قوم يرون أنك منهم بمنزلة أهل المرتفعات منك . أما في الوادي المقدس فلا يتفاضل الناس إلا بقدر ما فيهم من خير، يسمو فيه المظلوم - وإن كان متواضعا - فوق الظالم، وإن بلغ السماء عظمة وشغل الناس بمجده وجبروته... ذلك أن الظالم لا يستطيع أن يستمتع بأمن الوادي المقدس مادام ظالما) . ومعنى هذا عنده أنك إذا رأيت نفسك في قبضة شر لا تستطيع له ردا، وإذا اعتراك اليأس وبدأت تسأل عن معنى الحياة، وإذا غلبتك القوة القاهرة الكامنة في النظم التي لا تستطيع تغييرها، إذا حل بك هذا الظلم فليس لك إلى النجاة من سبيل، إلا أن تأوى إلى واديك المقدس تلتمس فيه الخلاص من اليأس والقلق .

يقع الكتاب في سبعة فصول:

الوادي المقدس - التطهر - التطهر عن طريق الدين - الهدى والضلال - الحقائق
الأبدية - الحرمان - الضباب ...

رحلة كبيرة للنفس تصفو فيها من أدرانها حين تشارف المنبع ثم تدانيه وتتطهر فيه .
والتطهر ارتفاع النفس عن الطباع الحيوية البحتة .

ولم يعرف الناس في تاريخهم الطويل شيئا أقوى من الدين في تطهير النفوس، وعن
طريقه بلغت النفس الإنسانية أقصى ما بلغته من سمو .

ويشمل بحث الكاتب في التطهر بالدين مباحث ثلاثة:

* مبحث في طبيعة النفس الإنسانية .

* ومبحث في القدرة الإلهية .

* ومبحث في الإيمان من حيث هو الصلة بين الله والإنسان .

والطبيعة البشرية في أول أمرها تكون غفلا غير ذات لون خاص . ثم تدب فيها روح
الاستهزاء وبذلك تصبح نفسا ... حتى إذا اهتدت فعلا، كان لنا أن نسميها ضميرا .

وهو يرى أن النفس الإنسانية بفطرتها وطبيعتها تكوينها تستهدى الخير ... وأكثر الناس
طيبون بطبعهم، يرتاحون إلى عمل الخير ويستشعرون سرورا عميقا حين يتاح لهم أن
يعملوا عملا صالحا ... ويدل على الخير الكامن في النفوس أن يندم الناس على ما يعملون
من شر، وأكثرهم لا يندمون إلا قليلا وإلى أمد قصير على خير عمله ففاتهم نفع كانوا
يرجونه على حين أنهم يندمون كثيرا على شر ارتكبهوه كان لهم عنه مندوحة . وقد
يفرحون به وقتا قصيرا ثم يذهب النفع ولا يبق إلا الندم .

قد تقول إن أعمال الناس لاتدل على أنهم بفطرتهم يستهدون الخير والواقع أن الآمال
السيئة لاتدل دائما على سواء في طبيعة فاعليها، أليس من طبع النار أن تضيء، ثم
يحدث أن تكون مصدر دخان تظلم به الدنيا، وتختنق به الأنفاس، ولا يدل ذلك على
طبعها ... كذلك النفوس قد تكون طيبة بفطرتها ثم يعتريها ما يحجب عنا ضوءها ودفنها
ويزيد في دخانها .

ويتحدث الدكتور محمد كامل حسين عن «الإيمان» فيعرفه بأنه قوة كامنة في النفس
السوية ترجع إلى طبيعة تكوينها، وهو أصل الصلة بين الله والناس ... ذلك أن النفس
البشرية لامناص لها من أن تؤمن بشيء .. والذين لا يؤمنون بشيء، أصلا قليلون وهم

المشوهون نفساً الذين يعرضهم لإحادهم إلى اضطراب نفسى عنيف... وعدم الإيمان مصدر أكثر الأمراض النفسية، وضعف الإيمان أكبر أسباب القلق النفسى.

ويتكلم فى هدوء اليقين وعمق الدارس عن خلاف المتدينين فلا يرى رأى القائلين أن الخلاف يزول إذا حملوا الناس على اعتناق دينهم كأنهم يريدون أن يكون العالم كله على دين واحد... ومن هنا كانت حماسهم فى التبشير.. ولم ينجح التبشير بالمسيحية نجاحاً يذكر إلا فى البلاد الوثنية لحاجة الوثنيين الشديدة إلى الهداية. ولكن أهل الأديان الأخرى لم يؤثر فيهم التبشير كثيراً.

وظن غير هؤلاء أن التوفيق بين الأديان يتم عن طريق الفهم العقلى لما فى كل دين من تعاليم ومبادئ سامية. ولكن الفهم العقلى لعقيدة تخالف عقيدتك لا يودى إلى الفهم الروحى والاطمئنان النفسى إلى هذه العقيدة فهذا أمر أعظم كثيراً من الفهم العقلى.

وظن آخرون أن التفاهم بين المتدينين يكون عن طريق التسامح. والأصل فى التسامح أن تستطيع الحياة مع قوم تعرف يقينا أنهم خاطئون.. كأنك تتجاهل عقائد الآخرين... والدين أعز على الناس وأشد أثراً فيهم من أن يكون تجاهله مؤدياً للتفاهم الحق... وقد يكون التسامح على هذا النحو استخفافاً منك بعقيدتك وهو حينذاك يكون شراً من التعصب بالنسبة إلى قدرتك على التطهر ديناً... وقد يكون التسامح كرمياً منك تجود به على من هم دونك إيماناً... هذا التسامح لا يودى إلى تفاهم سطحى لا يؤبه له ولا يدوم إلا قليلاً.

أما نظرية الوادى المقدس فقد تودى إلى التفاهم المنشود... إذ هى لا تحملك على التساهل فى شىء من دينك... وهى كذلك لا تحملك على أن تحتقر عقيدة غيرك... وهى وحدها التى تعلم الناس أن التدين يبدأ من نقطة واحدة هى النفس الإنسانية وينتهى إلى غاية واحدة هى الله. وأن التطهر به يتم بعد ذلك على اختلاف طباع النفوس المتطهرة.

ومن أروع ما فى الكتاب حديث الدكتور محمد كامل حسين رحلة الأديان فى عملية تكامل... يقول:

المثل الأعلى عند المسلمين	النفس المطمئنة.
والمثل الأعلى عند المسيحيين	النفس المحبة.

والمثل الأعلى عند الموسويين النفس العادلة .
ولعل المثل الأعلى عند البوذيين النفس المتخلصة .

هذه المثل العليا تختلف اختلافاً بينا، إلا أنها كلها تؤدي إلى الصحة النفسية إذا وافق المثل الأعلى ما رُكب في نفس المؤمن به من طباع .

ولا تنفع تعاليم النفس المتخلصة في تحقيق صحة نفس من مثلهم الأعلى العدل أو الحب . هذه الأمور لا توائم النفس الساعية إلى التخلص، والنفس التي جبلت على إكبار العدل لا تستقيم صحتها على خير وجه إذا أرغمت على الأخذ بتعاليم النفس المحبة لأن هذه تضع الحب فوق العدل .

والنفس المطمئنة جماع ذلك كله ... تطمئن إلى العدل إذا هذبت حواشيه وخففت من قسوته عاطفة الحب . والجمع بين العدل والحب يؤدي إلى الرحمة وهي عند المسلمين أرقى من العدل . وأقوى من الحب وأقرب إلى طباع أكثر الناس . وهي عندنا أعظم صفات الله .

والأديان المنزلة هبطت على الناس على هذا الترتيب حين أريد للإنسان أن يتصل بالله . فتعلم من الدين أول ما تعلم أن الله يثيب المحسن ويعذب المسيء، وهو حق إلهي لا شك فيه . ثم أنزل الله عليهم عاطفة الحب دعوة المسيح المحببة فتبينوا أن الله وإن كان يجزي الناس بأعمالهم إلا أنه يثيب كذلك على حب الناس إياه وحبهم بعضهم بعضاً، ثم أنزل الله على الناس القرآن يجمع بين العدل والحب في صفة واحدة هي الرحمة، ولم يكن للإنسان أن يدرك في أول عهده بالدين كل هذه المعاني قبل أن يستقر كل معنى منها في طبائع البشرية .

فاختلاف المثل العليا السماوية لا يرجع إلى اختلاف في هداية الله للناس ولكنه اختلاف في قبول النفس الإنسانية للهداية وقدرتها على استيعاب كل معاني الخير .

ويتحدث الكاتب الطبيب عن الملل... وهنا يقول: قل أن تجد رجلاً مؤمناً يصيبه الملل من كتبه المقدسة . وقليل منهم من يمل العبادات، وهم يكررون صنيعاً واحدة في دعائهم لله وفي صلاتهم له ولا يصيبهم من ذلك ملل... بل إن أثر الدعاء والصلاة في نفس المؤمن يظل قويا أبداً رغم تكراره يوماً بعد يوماً... وهي ظاهرة لانزاهة في غير الأمور النفسية العميقة .

ويحلل الملام بأنه ظاهرة تكاد تكون عامة في الكائنات الحية وهو أوضح ما يكون في الإنسان. وجوهر هذه الظاهرة أن القوة التي تعمل في الكائن الحي تحدث فيه أثرا بعينه.. حتى إذا استمر عمل القوة نفسها على هذا الكائن ضعف أثرها فيه وإن ظلت على قوتها الأولى... فالصوت الذي يوقظ النائم في أول الأمر يفقد هذه القدرة حين يتكرر كثيرا.

وأكثر رجال الاجتماع والسياسة يغفلون تقدير الملام في الناس فيفسد بذلك حسابهم نتائج أعمالهم. فطن إلى ذلك لامارتين حيث قال إبان ثورة من ثورات بلاده: إن فرنسا أصابها الملام.

ومن أمتع ما في الكتاب حديثه عن حرية الفكر فهو يرى الظلم نوعين: ظلم بالعسف وظلم بالحرمان.. وعنده أن حرية الفكر هي العامل الحرمانى الأول في حياة الأمة... والحرية الفكرية هي الأمر الذى إذا حرّمه الناس شل نشاطهم مهما يكن الإنتاج المادى أو الفنى أو القوة التى يبلغونها... وهى لا يمكن أن تكون عند كل فرد من الجماعات التى يصح أن نقول عنها إنها متمتعة بها... وإنما يكفى الجماعات أن يكون فيها بعض المفكرين الأحرار يتمتعون بحرية كاملة.

وحرية الفكر أيضا من الأمور التى لا تستطيع أية أمة أن تستعويض عنها بغيرها من الأمور، فالقوة والغنى والفتوحات لا تمنع الدولة من الانحطاط، إذا لم يكن فيها القدر الكافى من حرية الفكر، بل إنه يشاهد فى التاريخ القديم أن زوال بعض الدول إنما تم بعد فتوحات ضخمة، فإن ذلك دفع القائمين بالأمر فيها إلى الاستبداد وعند ذلك يبدأ الضعف المميت. وأخيرا يقارن بين العقل والعين فى الرؤية وينتهى إلى أن الخطأ ليس فى الاحتكام إلى العقل ولكن الخطأ كل الخطأ أن نسرف فى الثقة به فننتدى حدود طاقته ونحمّله ما لا قبل له به.

وقد يكون البسطاء أهدى من الأذكىاء ويكون ذلك لأنهم يظلون فى الدائرة المنيرة التى يضيئها لهم عقلم ولو كان نوره خافتا.

وإذا كان علمنا بالماضى ناقصا حتما، وإذا كانت قدرتنا على الإحاطة بأسباب الأحداث الماضىة ناقصة حتما.. وإذا كان تصورنا للماضى يختلف باختلاف تفكير كل منا وسابق خبرته، فكيف يستطيع أحد أن يطمئن إلى صواب تقديره للمستقبل وهو لا يعرفه إلا قياساً على معرفته بالماضى وهى ناقصة من غير شك.

ويصف الضباب فى الحياة ومما ینجم عنه... أقصد الضباب المعنوى، بقوله: یدأ الناس حیاتهم الدنيا وهم فى طریق واضحة مشرقة مستقيمة... ثم یغریهم ما یرون على جانب الطريق من أشجار عالیة یرونها مثقلة بالثمار... یرون ذلك من خلال الضباب فیخرجون عن طریقهم تدفعهم إلى ذلك رغبتهم فى الاستزادة من المعرفة بها والاستمتاع بخیرها... حتى إذا جاءوها لم یردوا فیها ما كانوا یؤملون... ویحاولون العودة إلى الطريق المستقیم والوادی المقدس وأكثرهم یصلون عنه.

وهم یعيدون بذلك خطیئة آدم... وهى خطیئة لا یکاد ینجو منها أحد من أبنائه منذ خلق الله الأرض ومن علیها.

* * *

ما أروع النقاء الفن بالعلم فى : کتاب

وفى کيان إنسان